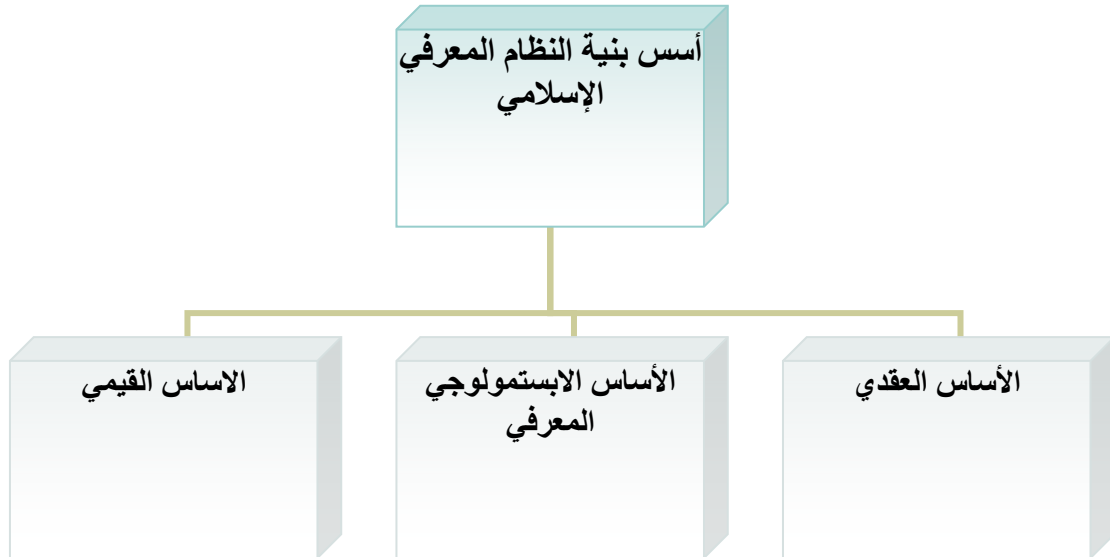
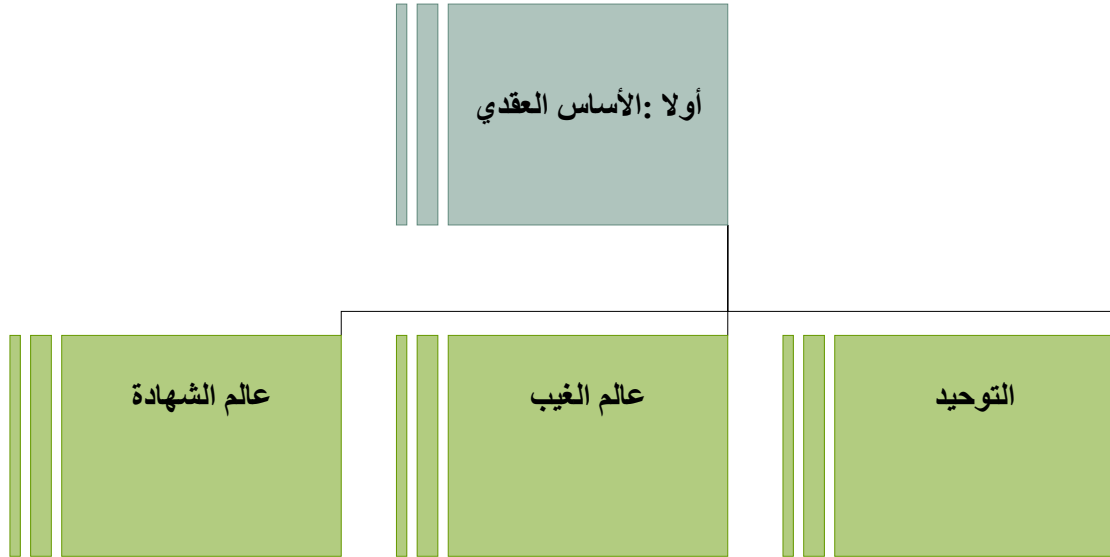


## النظام المعرفي الإسلامي

النظام المعرفي يشبه تماما فكرة الهندسة , فمن دون رؤية هندسية لا يمكن إنشاء أي بناء صغر أم كبر , سواء أدرك الباني مفاهيم الهندسة أو عرفها بوصفها علما أم لم يعرفها , لذلك قد يكون من شدة عمق النظام المعرفي وتغلغله في الفكر الإنساني أنه لم يعرف , ولم تتفق جهود في تحديده , لأن البديهي لا يحتاج إلى تعريف ؛ فالناظر في حقيقة النظام المعرفي بعيدا عن المصطلح الذي يطلق عليه , يجد أن النظام المعرفي الإسلامي , سواء اعتبر لأسلمة المعرفة أو هو ذاته مرادفا لها . ظاهرة تاريخية ممتدة صاحبت العقل المسلم منذ أن أوحى إليه أن يقرأ باسم الله في كتابه الموحى , أو أن يقرأ مع الله في كتابه الكوني المكتوب بيد قدرته .





## (1) التوحيد :

هو وحدة الحقيقة ويحتوي على قواعد ثلاثة :

- أ - رفض كل ما لا يتطابق مع الحقيقة (رفض التزييف والشك في الإسلام)
- ب - إنكار المتناقضات اللامتناهية (عدم تعارض العقل والنقل)
- ج - الانفتاح على البيانات الجديدة والمضادة وكليهما معا , بمعنى الاجتهاد الدائم (يصون المسلم من الجمود والتقليد)
- أبعاد أو مبادئ " لا إله إلا الله " :
- تفسير كنه الخليفة (الخالق والمخلوق منفصلان) .
- الصلة الوحيدة بين عالم الخالق وعالم المخلوق هي الصلة العقلية , التي تؤهل المخلوق لإدراك إرادة الخالق .
- غاية الخلق تحقيق إرادة الخالق .
- تكليف الإنسان بتحقيق إرادة الله .
- الوسع مبدأ معرفي ميتافيزيقي . فقد وضع الله في فطرة البشر القدرة على التعرف وإدراك أوامره وطاعته .

## (2) عالم الغيب :

الإيمان بالغيب من مقتضيات التعاليم الإسلامية , وينقسم إلى قسمين :

- العقيدة : وتشمل الإلهيات , والنبوات , والغيبيات .
  - التوحيد : ويشمل الشريعة والذي يظهر من خلال التطبيق السلوكي .
- ومن أهم مظاهر تأثير الإيمان بالله :

أ - سعة النظر :

علاقة اضطرادية مع المعلومات والحقائق . فالمسلم يتسع نظره عن الكافر لأنه ينظر إلى الحقائق من خلال عالمين عالم غيبي وعالم الشهادة , بخلاف الكافر ينظر من خلال عالم مادي فقط .

ب - تحرر الفكر :

الإيمان بالله وعالم الغيب (ما وراء المادة) يحرر الفكر الإنساني من القيد الذي يكبله عن إدراك الحقيقة . (المسيحية وخطيئة الإنسان , وتجسيد المسيح) , وكذلك التوحيد يحرر الفكر من الرؤية التشاؤمية .

ج - وحدة المعرفة :

من مقتضيات الإيمان أن يرى الكون وما يجري فيه من أحداث من تدبير الله . فهو وحده المسبب المطلق المفرد لكل ما يجري من أحداث , السبب لكل ما هو كائن . فوحدة المعرفة تعطي رؤية كلية , وتبتعد عن الرؤية التجزيئية .

- الإيمان بوحدة المعرفة كفيل بتجاوز حالة الفوضى الفكرية السائدة في الفكر الفلسفي والعلمي وحتى الديني .

- وحدة المعرفة تجعل حركة الإنسان منسجمة متوافقة متواصلة مع عالم الغيب .

(3) عالم الشهادة :

ينطلق هذا المحور من عدة أبعاد :

- أن الله مدبر الكون بما فيه " يدبر الأمر من السماء إلى الأرض " , ويحيط علما بخفائيه وأسراره .

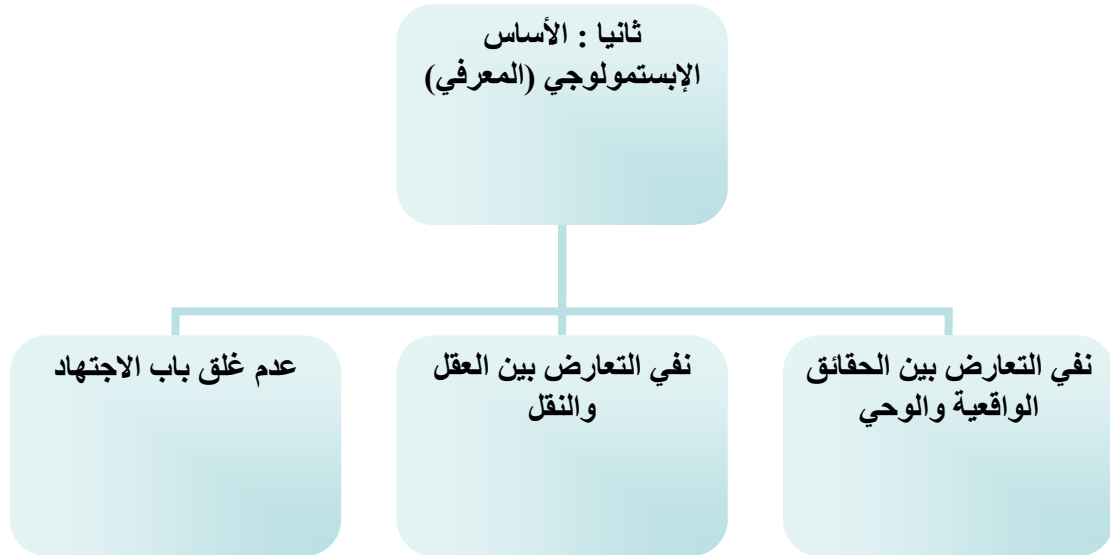
- الإنسان يستطيع إدراك السنن والقوانين التي تحرك هذا العالم .

- العالم شبكة من العلاقات السببية المترابطة المعتمدة على بعضها , والتي تكرر نفسها ويمكن اكتشافها وهو ما يسمى بالعلم .

- إن العلوم لا تحتاج فصل الله عن الطبيعة .

- المعرفة شرط الخلافة , والعلاقة طردية .

- وضع العقل الإسلامي وإمكاناته المادية والمعنوية تختلف عن العقل اليوناني .



يطلق المعرفي أحيانا على الإبستمولوجي (Epistemologique) , إذ تطلق هذه الكلمة في النسق الغربي على " دراسة مناهج المعرفة التي تطبق في العلوم " كما تطلق على نظرية العلوم. وتتعلق كذلك بمشكلات المعرفة في الفلسفة وفي العلم , وعلى أشكال التفكير الرياضي , غير أن مفهومها تحدد أكثر غاستون باشلار (1962/1884) , عندما أشار إلى أسس الفكر العقلاني للفيزياء المعاصرة في علاقته بالتجربة .

فالإبستمولوجيا , إذا تميز بين شكلين للمعرفة :

الأول : هو المعرفة الحسية , وتقوم على المنهج الواقعي (Realiste) .

الثاني : هو المعارف العقلية (Rationalistes) والمثالية (Idealistes) .

ومن ثم , فهي دراسة نقدية لمبادئ العلوم المختلفة , فروضها , ونتائجها , وتحديد أصلها المنطقي , وقيمتها الموضوعية .

ومن جملة القضايا التي تثيرها الإبستمولوجيا قضية الجوهر وفكرة الكل , فالجواهر هو الدعامة الأساسية والثابتة لكل الظواهر , وهو الناحية الأولية والكلية في الشيء , وتعتمد الظواهر على الجوهر لوجودها , ولا يعتمد هو على أي شيء لوجوده . ومن ثم فإن الجوهر هو الحقيقي وما عداه فهو وهم . فهل كان من الضروري البحث عن فكرة الجوهر هذه المختفية خلف الظواهر ؟ أما كانت الأشياء – كما تبدو لنا – كافية في فهم حقيقة الوجود حتى نبحت عن شيء هو الجوهر .

وفي ضوء ما سبق يتضح ما يلي :

- فجواهر حضارة المسلمين هو التوحيد , فهو المرشد والموجه والناظم والضابط لكل حركات الفعل الإنساني . فلا يمكننا فهم الأشياء والأفكار من دون الرجوع للجوهر .

- فالإيمان بفكرة الجوهر يعني الإيمان بأن ثمة ثباتاً في الواقع , وأن هناك كليات ثابتة وراء الجزئيات المتغيرة . ويختلف هذا التصور عن تصور العدميين والسفسطائيين ودعاة ما بعد الحداثة الذين لا يؤمنون بوجود جوهر , لأن كل شيء عندهم متغير وعرض .  
- فالنموذج المعرفي التوحيدي يقوم على الإيمان بفكرة اليقين الموحى به من الله , في مقابل الشك التي يتسم بها النموذج المعرفي الغربي .  
- التصور الغربي قائم على مبدأ النفعية كأساس أو معيار للحقيقة , ويفتقر في حقيقته إلى الإجابة عن الأسئلة الكلية والنهائية .

ومن ثم , فالنموذج المعرفي الغربي قسم المعرفة كما يلي :

أ - المعرفة الطبيعية . (Natural Sciences)

ب - المعرفة الإنسانية . (Humanities)

ج - المعرفة الطبيعية . (Social Studies)

هذا التقسيم بدوره ينافي حقيقة التصور الإسلامي الذي يضع أعلى مراتب المعرفة الإيمان بالله ووحدانته , ثم معرفة بأحكام شريعته ومضمون عقيدته , وبعدها معرفة الإنسان للكون الذي يعيش فيه وإضافة إلى معرفته بنفسه وبالحياة , بحيث تتكون بنية النظام المعرفي من الوحي والكون الذي يشمل الطبيعة والإنسان , ومجالاته هي عالم الغيب وعالم الشهادة . ليجمع في الأخير جدلية الغيب وجدلية الإنسان وجدلية الطبيعة , أما النظام المعرفي الغربي فيشمل جدلية الإنسان وجدلية الطبيعة فحسب , في محاولته الإجابة على الأسئلة الكبرى والنهائية الآتية :

ما علاقة الإنسان بالطبيعة (المادة) وأيهما يسبق الآخر ؟

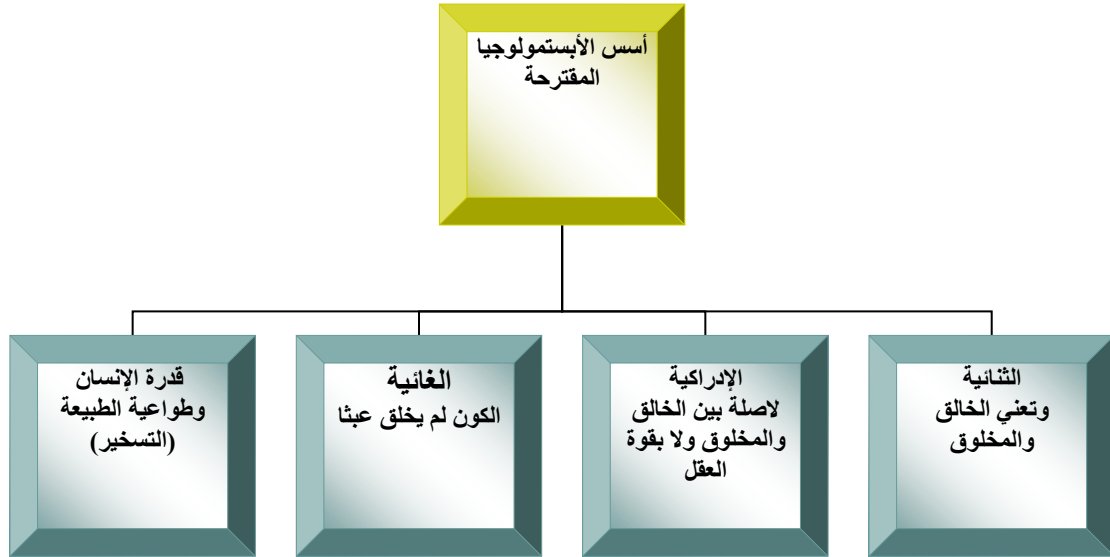
ما الهدف من الوجود ؟

المشكلة المعيارية من أين يستمد الإنسان معاييره ؟ من عقله المادي , أم من أسلافه , أم من جسده , أم من الطبيعة (المادة), أم من قوى أخرى متجاوزة المادة ؟

ومن ثم فالمعرفة في النموذج الإسلامي مشروع مفتوح , وجهد متواصل , وسعي مستمر من أجل الكشف عن الحقيقة المصفاة من الدجل والتدليس والتلبيس .

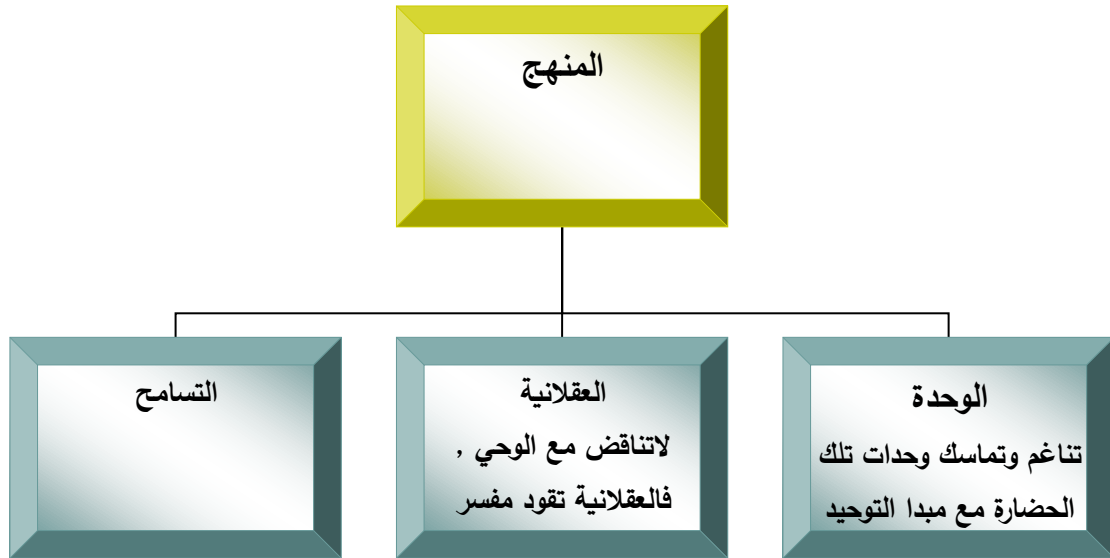
ويمكن تلخيص هذه الإستمولوجيا البديلة المقترحة في المحاور التالية :

أ - التوحيد بوصفه نظرة تفسر العالم : فهو نظرة للواقع والحقيقة والعالم والزمان والمكان والتاريخ البشري , وهو بذلك يشمل المبادئ الآتية :



ب - التوحيد بوصفه جوهر الحضارة :

فهو بذلك له بعدان **المنهج والمحتوى** ، يشكل البعد الأول تطبيق وتوظيف المبادئ الأولى في الحضارة ، كما يحدد الجانب الثاني المبادئ الأولى نفسها .



(2) المحتوى :

التوحيد بوصفه مبدأ في الفلسفة الماوراء طبيعية . يعني أن التوحيد ضرورة ، لإلغاء أية قوة فاعلة في الطبيعة إلى جانب قدرة الله ، الذي تكون مبادرته الأزلية هي القوانين الثابتة في الطبيعة ، الله هو السبب الأول للموجودات . وهو ما وصل له العلماء الغربيين أخيرا ، بعد أن نبذوا الميتافيزيقا لفترة طويلة . فقد نبذ الغرب فكرة الله من الكون ، ومن العلم أيضا ، عادوا من جديد إلى القول إن نظام الكون وتناسق عناصره ودقة إحداث ظواهره ، لايمكن أن تصدر إلا عن إله مطلق . فالحقيقة في التصور الإسلامي لاتفصل الطبيعي عما وراء الطبيعة ، ولا تفصل

النظرية عن التطبيق , والنظر عن العمل والعقل عن السلوك , والدين عن الدنيا , والدنيا عن الآخرة , والإنسان عن الله وعن الكون , والمجرد عن المشخص والنسبي عن المطلق , والكل عن الجزء , والعام عن الخاص , والمركز عم الأطراف والبؤرة عن الهامش , فهذه كلها سمات للحقيقة وفق الإستمولوجيا البديلة التي يطرحها الفاروقي .

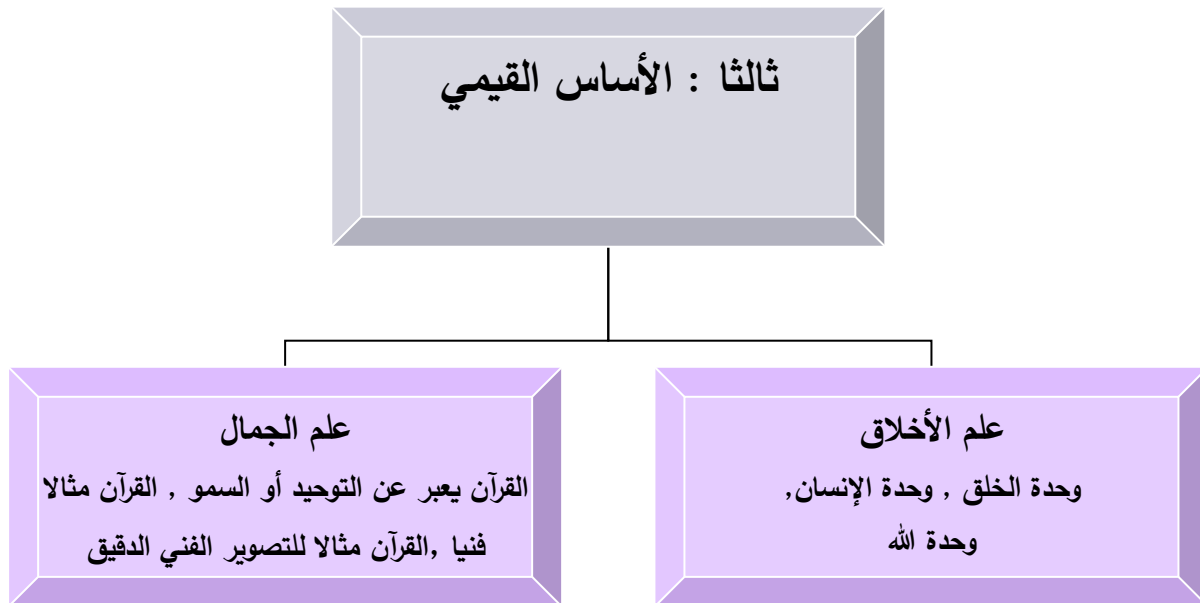
### ثالثا : الأساس القيمي :

لما انطلقت النظرية المعرفية الغربية من جدلية الإنسان الطبيعة دون الوحي , اتخذ العلم بفعل منهجه ومفاهيمه وسيلة لتعزيز عالم ظلت فيه السيطرة على الطبيعة مرتبطة بالسيطرة على الإنسان , فالطبيعة الخاضعة للعقلانية العلمية , تبدو متمثلة في جهاز الإنتاج والتدمير التقني , الذي يضمن للأفراد حياتهم ويسهلها , والذي يخضعهم في الوقت نفسه لأصحاب الجهاز . ومن خلال هذا المنظور افتقر العلم إلى جملة من القيم والضوابط , مما تسبب في اغتراب الإنسان في النهاية (هريبرت ماركيز 1979/1889) , فأصبح العلم مرجعية ذاته .

فالنظرية المعرفية تتكون من شقين :

الأول : يتعلق بإنتاج العلم .

الثاني : يتعلق بتوظيف العلم المنتج لتسيير حياتنا العملية , وما يترتب على ذلك من تفاعل بين الوحي والواقع الاجتماعي , ما يؤدي إلى نمو العلم الإسلامي التجريبي في المجالين الطبيعي والاجتماعي . قولكن عملية التوظيف تقتضي وجود المقاصد الحياتية , والمقاصد تقتضي وجود الدوافع النفسية الحافزة للعلم , والمقاصد والدوافع تقتضي وجود مرجعية قيمية وأخلاقية حاکمة .



فالعلم الأخلاقي من خلال النظام المعرفي الإسلامي يخلق الإنسان الذي يحقق إرادة الله يقتضي وجود الأمة , بمعنى أنه يستحيل وجود الأمة الإسلامية دون وجود البشرية والحياة , فلأجلها أنزل , فاستمرارها رهن قيمها وأخلاقها .

علم الجمال : وصف القرآن الله بصفات الجمال والجلال والكمال " والله الأسماء الحسنى " " وليس كمثله شيء " .

فالفن في النسق الإسلامي يرتبط باللامتناهي , حيث يتوجه ذهن المتلقي نحو الله , ويغدو الفن دعماً للعقيدة الدينية وتذكيراً بها . بينما الفن في النسق الغربي تجسيد للطبيعة وتقديس لها , وتطور الأمر ليتخذ الفن شكل محاكاة الإله , فهو يصنع الألهة على شكل البشر ويضفي عليهم صفات بشرية .

الفرق بين مصطلحي (Aesthetic/Beauty) , الأول الجمال المادي , والثاني الجمال . فالجمال والفن باعتبارهما قيمتين ينضويان تحت منظومة القيم الإسلامية التي لا تخصصان مجالاً معيناً , بل هي جزء لا يتجزأ من نسق كامل , هو النسق المعرفي الإسلامي . بمعنى أن الجمال ليس غاية لذاتها وإنما هو أحد الأهداف التي ترد للغاية الكبرى من الخلق والمتمثلة في ربط الخلق بالخالق , برابطة التوحيد , وما يقتضيه من تذكير بنعم الله على خلقه ظاهرة وباطنة .